المسألة اليهودية : حقيقة أم خيال؟

"لاتزال المسألة اليهودية موجودة، ومن غير المفيد إنكار وجودها ... فالمسألة اليهودية موجودة فى أى مكان يتواجد فيه يهود بأعداد قليلة، وحيث لا تتواجد، يحملها اليهود الذين يقومون بالهجرات. فمن الطبيعى أن نتوجه إلى الأماكن التى لا نتعرض فيها للاضطهاد.... واليهود المنكوبون يحملون الآن معهم معاداة السامية إلى انجلترا ولقد أدخلوها بالفعل إلى الولايات المتحدة".

(ثيودور هيرتزل 'الدولة اليهودية' صفحة ٤).

* * *

إن الصعوبة الأساسية فى الكتابة عن المسألة اليهودية تكمن فى الحساسية المفرطة التى يبديها كل من اليهودى وغير اليهودى تجاه الموضوع، حيث يسود إحساس مبهم بأنه من غير اللائق على الإطلاق استخدام كلمة "يهودى" شفاهة أو حتى كتابتها فى التقارير الصحافية المطبوعة، وبخشية بذلت محاولات مهذبة لتجنب ذكر تلك الكلمة واستخدام كلمات أخرى مثل "عبرى" و "سامى" غير أن كلتى اللفظتين لا تتسمان بالدقة. ويحاول الناس أن يتحسسوا طريقهم عند إثارة النقاش حول هذا الموضوع كما لو أنه أمر محظور. ويظل الأمر كذلك إلى أن يأتى مفكر يهودى يتحلى بالشجاعة ويعيد التذكير بالكلمة القديمة الجيدة "يهودى" وينتج عن ذلك أن تهدأ الأعصاب ويقل التوتر. وكلمة يهودى ليست كنية أو لقبًا، ولكنها اسم قديم و مشرف، ويحمل مغزى ما فى كل فترة من فترات التاريخ الإنسانى الماضى والحاضر، والمستقبل الآتى.

وهناك حساسية مفرطة حول المناقشات العامة التى تدور حول المسألة اليهودية والتى يشترك فيها الجنتيل، أو الأغيار، غير اليهود، حيث يفضلون أن تظل فى نطاق تلك المنطقة المبهمة من فكرهم والتى لا يجب الكشف عنها بل تظل محاطة بغلالة من السرية، وقد يكون تراثهم (غير اليهود) الذى ينطوى على قيم التسامح لديه علاقة باتجاهاتهم تلك، ولكن ربما هذه الحساسية ترجع فى جزء منها أيضا إلى حسهم الغريزى بالصعوبة المتوقعة من جراء تلك المناقشات.

فالتصـــريحات العامة التى ينطق بها العامة من الأغيار حول المسألة اليهودية تصـــدر إما من الساسة أو الخطباء بعد حفلات العشاء، وهى تصريحات يعاد فيها بشـــكل روتينى تكرار الاسماء اليهودية المرموقة فى علوم الفلسفة والطب وفروع الأدب والموســـيقى والمال، ويتم الإسهاب فى التفاصيل حول قدرة اليهود وطاقاتهم ونجاحهم كمجموعة عرقية، وبعد انتهاء مثل تلك الخطب يعود كل واحد من أولئك الساســـة أو الخطباء إلى بيته يملؤه شعورا بأن إحدى المساحات الصعبة مع اليهود قـــد تم التفاوض عليها بشكل لا يخلو من المهارة، ولكن كل شيء يظل على حاله. فالـــيهودى لا يتغيـــر واللايهودى لا يتغير، ويظل اليهودى أسطورة هذا العالم. أما الحساســـية المفـــرطة للأغيار تجاه الموضوعات المتعلقة باليهود فهى تنعكس– فى أفضل صورة لها– فى الرغبة فى اللوذ بالصمت، ولسان حالهم يقول: "لماذا نناقش هذا الأمر على الإطلاق"؟. غير أن ما لايدركونه هو أن هذا السلوك ذاته هو أكبر دلـــيل علـــى أن هـــناك مشكلة ما نعمل على تجنب الحديث عنها قدر ما نستطيع. ويـــري المفكـــر المهـــتم بعـــواقب مـــثل هـــذا السؤال– "لماذا الحديث عنها على الإطـــلاق؟"– بوجـــود مشـــكلة لن تكون مناقشتها أو كبتها أمرًا اختياريًا لأصحاب العقول البسيطة.

هل هناك مسألة يهودية فى روسيا ؟ هذا أمر غير قابل للنقاش، هى توجد فى أسوأ صورها. هل من الضرورى مواجهة المسألة اليهودية فى روسيا ؟ بدون شك لابـــد مـــن مواجهتها بكل وسيلة يمكن أن يتحقق من خلالها الأمل والمصالحة. من المعـــروف أن عدد السكان اليهود فى روسيا يزيد عن عددهم فى الولايات المتحدة بنســـبة ١%، وغالبـــية الـــيهود الروس ليسوا أقل تهذيبا من أولئك الموجودين فى الـــولايات المـــتحدة، غيـــرأنهم يعيشون فى ظل قيود غير موجودة هنا، ولكن فى روسيا بلغ اليهود بذكائهم درجة من النفوذ أذهلت العقل الروسى.

إذا مـــا ذهـــبت إلى رومانيا أو روسيا أو النمسا أو ألمانيا، أو حتى أى مكان آخـــر احـــتلت فـــيه المسألة اليهودية مساحة كبيرة فى المناقشات العامة كموضوع حـــيوى، ستكتشـــف أن القضية الأساسية ما هى إلا نتاج الخصوصية اليهودية فى تحقيق النفوذ.

وفى الولايات المتحدة يكاد يكون سبب وجود المسألة اليهودية هو حقيقة كيف أن هذه الاقلية – حيث إن اليهود ثلاثة بالمائة من أمة يبلغ عدد سكانها مائة وعشرة

ملـيون نسـمة ـ قد استطاعت فى مدة قوامها خمسون عاما أن تحظى بدرجة من السيطرة من المستحيل أن تحصل عليها مجموعة عرقية أخرى، أكبر عشر مرات مـن عدد السكان اليهود. الأمر نادرا ما يستدعى التعليق إذا كان هناك ثلاثة بالمائة مـن أى مجمـوعة عـرقية أخرى، لأنك لن تتقابل مع ممثلين لهذه الأقلية فى كل الأمـاكن العلـيا التي تذهب إليها: فى المجالس الشديدة السرية للأربعة الكبار فى فرساى[الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا وفرنسا] أو فى المحكمة العليا، أو فى مجـالس البيت الأبيض، أو فى مراكز المال فى العالم، فهم يتواجدون أينما كانت هـناك قوة أو نفوذ يمكن أن يحاز أو يستغل. غير أننا نقابل اليهودى فى كل مكان فـى الدوائر العليا، وتقريبا فى كل مكان توجد فيه القوة؛ لأنه يملك الفكر والمبادرة والـرؤية الـنفاذة التى تضعه بشكل آلى فى القمة، وبالتالى هو أكثر تمييزا من أى جماعة عرقية أخرى.

وعـندئذ تـبدأ المسـألة الـيهودية، وهى تبدأ بأمر بسيط للغاية وهو كيف أن الـيهودى يـنجذب بـدون مقاومة وبشكل اعتيادى إلى الأماكن العليا ؟ من يضعه هـناك؟ ولماذا يوجد هناك؟وماذا يفعل هناك؟ وماذا تعنى حقيقة وجوده هناك للعالم بأسره؟

هذا هو جوهر المسألة اليهودية، وهى تنطلق من هذه التساؤلات إلى تساؤلات أخـرى، أما إن الاتجاهات الناتجة عن هذه التساؤلات سوف تكون مؤيدة لليهود أو معاديـة للسـامية فيتعلق على حجم الضرر أو الفائدة على المتحرى، أو أن يصبح الاتجاه إنسانيًا، فذلك يتوقف على حجم بصيرة وذكاء المتحرى.

إن اسـتخدام كلمـة الإنسانية مع كلمة اليهودى عادة ما تثير معنى جانبيًا غير مقصـود، ذلـك أنه فى هذا الإطار عادة مايفهم أن الإنسانية يجب أن تمارس تجاه اليهود. ولكن هناك على اليهودى فرض مماثل فى القدر بأن يظهر إنسانيته مع كل البشـرية. اعـتاد الـيهودى منذ زمن طويل أن يفكر فى نفسه كالمطالب المتفرد بإنسانية المجتمع، ولكن المجتمع من ناحية أخرى يأخذ عليه ضرورة أن يكف عن اعتـبار نفسه متفردا، وأن يكف عن استغلال العالم، وأن يكف عن جعل الجماعات الـيهودية هى الغاية، **وأن يبدأ فى تحقيق ـ وبشكل ما فإن هذا الزعم بالتفرد لم يمكـنه أبـدًا مـن تحقيق ـ النبوءة القديمة التى تقول بأنه من خلال اليهود فإن شعوب الأرض تتم لها البركة.**

الـــيهودى لا يستطيع أن يستمر فى ممارسة دوره كمتوسل للإنسانية العالمية، حـــيث يجب عليه أن يتعامل هو الآخر بإنسانية تجاه هذا المجتمع الذى تكونت لديه شكوك جدية حول محاولات الجماعات اليهودية القوية لاستغلاله بضراوة، وبشكل يخلـــو من الشفقة، وهو أمر يمكن أن يوصف بكونه برنامجًا اقتصاديًا ضد إنسانية عاجزة ؛ لأن المجتمع الإنسانى يقف عاجزا بالفعل أمام الابتزاز المنظم الذى قامت بـــه جماعات مالية حسنة التنظيم، مثلما كان يهودو روسيا عاجزين أمام العصابات المعاديـــة للســـامية. وفى روسيا كما فى الولايات المتحدة، اليهودى الفقير هو الذى يدفع ثمن التجاوزات التى يرتكبها المستغلون الأغنياء من بنى جنسه.

وتجـــدر الإشـــارة بـــأن هذه السلسة من المقالات قد قوبلت بحملة منظمة من الخطابات البريدية والتلغرافات و المكالمات الهاتفية، وكل واحد منها يتضمن عويلاً بالاضـــطهاد. ويتصـــور المرء كما لو أن الأمر يتضمن هجوما قاسيًا وعنيفًا ضد أنـــاس عاجـــزين وضـــعفاء، حتـــى نقرأ عنوان الخطاب لندرك الوجيه الذى كتبه والحالـــة المالـــية لأولـــئك المحتجـــين، وكذا إلى عضوية المنظمات التى يطالب رؤســـاؤها بشـــكل هيســـتيرى بســـحب المقالات. ودائما فى الخلفية هناك التلويح بالمقاطعـــة، وهـــو تهديد منع كل أعمدة الصحف فى أمريكا عن أى مناقشة، ولو بسيطة، حول المسألة اليهودية.

ولكـــن هذه التهديدات ضد النشر لا يمكن أن تخفى حقيقة المسألة اليهودية فى أمـــريكا للأبـــد، كما لا يمكن أن تخفيها المطبوعات الدعائية التى تمتدح كل ماهو يهـــودى، لابـــد مـــن الاعتـــراف إذن بوجودها وأنه لا يمكن تحويلها لشىء آخر بالاســـتخدام الشـــاذ للدعاية، ولا يمكن إخراسها بالتهديد. إن يهود الولايات المتحدة سيخدمون مصالحهم بشكل أفضل، وكذا ذويهم من اليهود فى كل أنحاء العالم إذا ما أســـقطوا تلـــك التهمة الجاهزة دائما وهى صرخة العداء للسامية، ذلك أن عليهم أن يتبـــنوا أسلوبا أكثر صراحة من ذلك الذى يليق بضحية عاجزة، وعليهم الاعتراف بالمســـألة الـــيهودية، وكيف أنها تلزم كل يهودى يحب قومه بأن يساعد على إيجاد حـــل للمســـألة بـــدلا من إنكار وجودها. **أريد أن أوضح أنه فى هذه السلسلة تم اســـتخدام مصـــطلح "اليهودى العالمى" وهو قابل لتفسيرين: أولهما هو اليهودى أيـــنما وجد، والثانى هو اليهودى الذى يمارس السيطرة العالمية، ومشكلة العالم هى مع الأخير وتابعيه، سواء كانوا يهودًا أو من الأغيار.**

هــذا الــنوع العالمى من اليهود، هذا االساعى للسيطرة على العالم، هذا المالك الحقيقــى والممســك بالســيطرة العالمية، هو بمثابة نكبة لبنى جنسه، ذلك أن أكثر الأمــور ســوءا، مــن وجهــة نظر اليهودى العادى، هو أن هذا اليهودى العالمى (الســاعى وراء السيطرة على العالم) هو أيضا يهودى، ومغزى هذا الأمر هو أن هــذا اليهودى العالمى لا ينمو إلا على "جذع" يهودية، ولا يوجد أى عنصر عرقى أو قومى آخر يقدم مثل تلك النوعية من الأشخاص. والأمر لا يتعلق فقط بكون أن هــناك بعضــا مــن اليهود يشغلون مناصب مراقبين ماليين عالميين، ولكن أن كل هؤلاء المراقبين العالميين فقط يهود. هذه الظاهرة هى التى تخلق المواقف المنكوبة لأولئك اليهود الذين لم ولن يتحكموا فى أموال العالم، وهم اليهود البسطاء. ولو كان أولــئك المتحكمون فى أموال العالم من جنسيات مختلفة، مثل أولئك المتحكمين فى صناعة البسكويت، لما شكل اليهود بينهم أى مشكلة على الإطلاق، إلا فى حدود أن قلــة من الرجال يتحكمون فى أموال العالم، ولكن لأن المراقبة المالية العالمية هى طمــوح حققه اليهود فقط، وليس بواسطة أىٍّ من الطرق والمناهج التى عادة ما يتم تبنــيها بواســطة أولئك الراغبين فى غزو العالم، يصبح من الحتمى إذن أن يتركز التساؤل حول تلك الجماعة العرقية على وجه التحديد.

وهــذا مــن شــأنه أن يســتدعي صعوبة أخرى، حيث إن النقاش حول هذه المجمــوعة مــن المراقبين العالميين المسماة باليهود (وهم بالفعل يهود) وليس من الممكن دائمًا أن نتوقف ونميز المجموعة من اليهود التى نعنيها وإنما القارئ الذكى بإمكانه أن يقرر هذا الأمر، أما القارئ اليهودى فسوف يعتبر أنه يتعرض للإساءة؛ لأنــه بالقطع سيتألم لقراءة تلك التهمة على أنها موجهة لــه، فى حين أن المقصود بها هم بالأساس الطبقات العليا من اليهود، وقد يطرح هذا التساؤل: " فلماذا إذن لا نــناقش الطبقة العليا على اعتبار أنهم ممولون وليس لكونهم يهودًا؟" وتأتى الإجابة لأنهم ببساطة يهود. وليس فى صلب الموضوع أن نصر على أنه فى أى قائمة من قوائم الرجال الأغنياء فإن أسماء الأغيار ستكون أكثر من أسماء اليهود، فنحن لسنا بصــدد الحــديث عن الرجال الأغنياء الذين حصلوا على ثرواتهم من خلال خدمة نظــام مــا أو مجتمع ما، وإنما نحن نتحدث عن أولئك الذين يسيطرون، وهو أمر واضــح تمامــا، ذلــك أنه لكى تكون غنيا ليس بالضرورة أن تسيطر، واليهودى المسيطر على العالم يمتلك ثروات، ولديه أيضا ما هو أكثر من الثروة.

اليهودى العالمى كما سبق تعريفه، يحكم ليس لكونه غنيا، وإنما بحكم كونه يملك ـ بتميز بارع ـ خصلة تجارية شمولية قاصرة على بنى جنسه، كما وأنه يستفيد من ولاء بنى جنسه وتضامنهم، حيث لا يوجد مثيل لهذا الولاء والتضامن فى أى مجموعة بشرية أخرى. بمعنى آخر فلنجرب أن ننقل السيطرة العالمية اليوم من اليهودى العالمى ونضعها فى أيدى أكثر مجموعات الأغيار ذكاءً وموهبة، وستكون النتيجة هى أن نسيج السيطرة العالمية سوف يتهاوى تماما؛ لأن الأغيار يفتقدون صفة بعينها، قد تكون إنسانية أو سماوية، طبيعية أو مكتسبة، هذه هى الصفة التى يمتلكها اليهودى.

ولكن بالطبع ينفى اليهودى المعاصر هذا الأمر تماما، وهناك موقف جديد يتبناه الحداثيون من اليهود، حيث ينفون أن اليهودى مختلف عن أى شخص آخر إلا فيما يتعلق بأمور الدين، وهم يقولون بأن صفة "اليهودى" ليست توصيفا عرقيا ولكنه توصيف دينى مثله فى ذلك مثل "الأسقفيين" و"الكاثوليك" و" أتباع الكنيسة المشيخية". هذه أيضا الحجة التى تستخدم فى مكاتب الصحف حينما تطلق صفة " اليهودى" على أولئك اليهود المتورطين فى أعمال إجرامية، حيث توجه رسائل إلى المحرر مفادها: "أنت لا تستخدم توصيفات دينية للأفراد الآخرين حينما يتم اعتقالهم"، "فلماذا تفعل هذا إذن باليهود؟" ودائما ما تنتصر الدعوة إلى التسامح الدينى، وهى أيضا مفيدة فى إلهاء الأنظار عن أشياء أخرى.

حسنا إذا كان اليهود بالفعل مختلفين دينيا عن بقية العالم، فإن الظاهرة تصبح أكثر غرابة، ذلك أن بقية العالم مهتم أقل بديانة اليهودى عن اهتمامه باليهودى نفسه. ولأنهم يدركون أنه لا يوجد بالفعل أى شىء فى ديانة اليهودى تجعل اليهودى مختلفا عن بقية الإنسانية، لاسيما فيما يتعلق بالمحتوى الأخلاقى لهذا الدين. وحتى لو كان الأمر عكس ذلك، فإن عليه أن يعمل لتخطى هذه الاختلافات من خلال كون ديانته اليهودية تشترك مع كل الديانات الأخرى فى القواعد الأخلاقية. بالإضافة لذلك يوجد بين الدول الناطقة بالإنجليزية حوالى ٢ مليون يهودى يعترفون بعرقهم وليس ديانتهم، بينما يوجد حوالى مليون يهودى يعتبرون أنفسهم لا أدريين(*). هل يمكن اعتبار هؤلاء إذن أقل يهودية من الآخرين؟ إن

(*) اللاأدرى يقول إنه لا يعرف، فهو ـ حسب زعمه ـ ليس عنده من المعرفة ما يجعله يؤمن، أو ما يجعله يلحد.

العـــالم لا يعـــتقد ذلــك. ودارسو الاختلافات البشرية الموثوق بهم لا يعتقدون ذلك أيضـــا. فالشـــخص الأيرلندى الذى ينمو غير مكترث بالكنيسة لايزال يعتبر رجلاً أيـــرلنديًا، ويـــبدو الأمر بالمثل فى حالة اليهودى الذى ينمو غير مكترث بالمعبد، حـــيث لا يـــنقص هـــذا الأمر من كونه يهوديا، هو على الأقل يشعر بأنه يهودى، وكذلك أيضا يشعر الأغيار بأنه يهودى.

وسينشـــأ تحـــد آخـــر من نظرية الحداثيين من اليهود؛ لأنها ستتطلب تفسيرًا لظاهـــرة اليهود المسيطرين على العالم بواسطة ديانتهم، ذلك أننا سنكون مدفوعين للقـــول بأنهم " يتفوقون من خلال هويتهم الدينية" وبالتالى تتحول المشكلة إلى الدين الـــذى تجلـــب ممارسته واعتناقه القوة والرخاء لمعتنقيه. ولكن هناك حقيقة أخرى لابـــد وأن تظهـــر وهـــى أن أولئك اليهود المسيطرين على العالم ليسوا بالضرورة متدينـــين، وحقـــيقة ثانـــية لابـــد من إدراكها وهى أن معظم المؤمنين المخلصين والتابعين المطيعين للديانة اليهودية هم الأكثر فقرا بين اليهود. فإذا كنت تبحث عن الـــيهودية الأورثوذكســـية وأخلاقيات العهد القديم، فإنك لن تجد معتنقيها من اليهود الناجحـــين الـــذين أضـــفوا صـــبغة مســـيحية علـــى ديانـــتهم، بمـــثل ما أضفى الموحدون(منكرو الثالوث) صبغة يهودية على المسيحية، ولكنك ستجد معتنقيها من الفقراء فى الشوارع الخلفية الذين مازالوا يضحون بأشغال يوم السبت للحفاظ على حـــرمته. فممـــا لاشك فيه أن ديانتهم لم تمنحهم السيطرة على العالم ولكن بدلا من ذلك فقد قاموا بتضحياتهم؛ لكى يحفظوها ضد الحداثة.

وبطبـــيعة الحال فإذا كان اليهودى يختلف عن بقية الجنس البشرى فقط حينما يكـــون على وفاق كامل مع ديانته، سيكون السؤال بسيطا وسوف يصبح أى انتقاد لليهودى مجرد عصبية دينية لا شىء آخر، وهذا سيكون بالفعل أمرًا غير محتمل. ولكن هناك إجماع بين العقول الحصيفة على أن اليهودى يختلف فى ديانته عن بقية العـــالم أقـــل مـــن اخـــتلافه فى أى شىء آخر، بل هناك اختلاف أكبر بين فرعى المسيحية أكثر مما هناك اختلاف بين أى منهما واليهودية.

فعلـــى الرغم من نظرية أولئك الحداثيين اليهود، فإن العالم سيواصل الاعتقاد بـــأن اليهودى هو عضو مجموعة عرقية، وهى مجموعة دفعها إصرارها لهزيمة كـــل المحاولات التى بذلت لإبادتها، وهي مجموعة عرقية تمكنت أيضا من الحفاظ على ذاتها بشجاعة وقوة، وذلك بمراعاة القوانين الطبيعية والتى أدى خرقها لتحول

أمـــم كثيـــرة إلى "هجين"، وهى كذلك مجموعة عرقية جاءت من الماضى بقيمتين أخلاقيتـــين عظيمتـــين ترتكنان على الوحدانية وعدم التعدد الزوجى(*)، وهى كذلك مجمـــوعة عـــرقية تعـــد بمثابة أثر تحن إليه ثروتنا الروحية. كلا، اليهودى سوف يواصـــل النظـــر إلى نفسه على اعتبار أنه عضو فى شعب أو أمة أو عرق، وكل الخليط وتداخل الأفكار فى الدين أو التقاليد لا يمكن أن تجعله يفكر بطريقة مختلفة. الـــيهودى هـــو اليهودى، وطالما التزم بتقاليد عدم الذوبان فى الآخرين سوف يظل كذلك، وسيظل يملك الحق فى الاعتقاد بأنه ليكون يهوديًّا فهو لابد وأن ينتمى لعرق أعلى (سامى).

هـــؤلاء الـــيهود المســـيطرون على العالم الذين يديرون الأمور، هم فى تلك الأوضـــاع بفضل صفات معينة، وهى صفات موروثة فى طبيعتهم اليهودية، فكل يهودى يملك هذه السمات حتى ولو بمعنى غير سام، كما أن كل رجل إنجليزى لديه لسان شكسپـــير ولكن ليس بالدرجة التى كان يتحدث بها شكسپـــير، وبالتالى ليس عمليًا إن لم يكن مستحيلا النظر فى موضوع اليهودى العالمى بدون الإشارة للبنية الأساسية حول الشخصية والسيكلوچية اليهودية.

وربمـــا نســـقط على الفور الشائنة الشائعة جدا وهى أن هذا الشكل من النجاح اليهودى مبنى على عدم الأمانة، ذلك أنه من المستحيل الادعاء على اليهود أو حتى على أى مجموعة بشرية أخرى بتهمة ما بشكل معمم، فاليهودى مما لاشك فيه هو أكثر الناس دراية بمدى انتشار فكرة أن طرق اليهود فى العمل هى طرق خالية من الضـــمير، ومما لاشك فيه أن قدرًا كبيرًا من ذلك ممكن الحدوث بدون أى مخالفات قانونـــية، ولكـــن مـــن الممكـــن أن سبب هذه السمعة التى اكتسبها اليهود فى هذه المجالات قد تكون له مصادر غير التهمة المستمرة بعدم الأمانة.

ويمكـــن أن نشـــير إلى أحد هذه المصادر، فاليهودى الذى يعمل بتجارة ما هو بطبيعـــته أكثـــر ســـرعة (احترافا) من الآخرين، وهناك نظريات تقول بأن بعض المجموعات العرقية قد تتمتع بذات الخاصية فى مجال التجارة مثل اليهودى، ولكن الـــيهودى لا يعيش فى وسط هؤلاء، ويجدر بالمرء أن يتذكر الدعابة الشهيرة حول اليهودى الذى ذهب إلى اسكتلندا.

(*) لـــيس فـــى الـــيهودية منع لتعدد الزوجات، وقصص الأنبياء فى العهد القديم تحكى عن تعدد زوجات داوود وعشرات الزوجات لسليمان.

ولكـن علـى مـا يبدو أن الطبيعة البشرية للأشخاص الذين يتصرفون ببطء تـدفعهم للاعتقاد بأن الرجل السريع (شاطر) لدرجة كبيرة مما يدفع لإثارة الشكوك حـول شطارته، وربما يرجع ذلك إلى أن الجميع يتشكك فى الإنسان الشاطر حتى لـو كانـت شطارته أمينة تماما، والعقل الذى يتصرف ببطء يميل إلى الاعتقاد بأن الشـخص الـذى يوظف خدعًا وحيلاً قانونية لتحقيق أرباح فى تجارة ما ليس من المسـتبعد أن يوظـف، بـل ويستخدم أيضا عددًا من الخدع والحيل غير القانونية، بالإضـافة لـذلك فهـناك أيضا الشكوك الجاهزة بأن الشخص الذى يحظي بأفضل صفقة لابد وأنه قد حصل عليها بالخداع، فالأشخاص الذين يتصرفون بتأنٍ وأمانة، وحديـثهم بسيط، وتعاملهم مستقيم، تتكون لديهم شكوك حول الشخص الذى يحظي بالصفقة الأفضل.

والـيهود- كمـا أوضحت سجلات القرون الطويلة- كانوا أناسًا حريصين فى مهـنة الـتجارة حتـى أن أفـرادًا كثيرين اعتبروهم محتالين، ونتيجة لذلك أعتبر الـيهودى غيـر مـرغوب فيهم لأسباب مهنية وليست كلها تحسب لصالح ذكاء أو مبادرات أعدائه.

ولنأخذ على سبيل المثال الاضطهاد الذى عانى منه التجار اليهود فى وقت من الأوقـات فـى انجلتـرا، ففى انجلترا القديمة كانت طبقة التجار تتمتع بالعديد من التقالـيد المـرنة. أحـد هذه التقاليد- على سبيل المثال- هى أن التاجر المحترم لا يمكـن أن يقـوم بالسعى للعمل ولكن عليه أن ينتظر حتى يأتى إليه العمل، وهناك تقليد آخر يتمثل فى أن قيامه بتزيين محله بالأضواء والألوان، أو أن يعرض مالديه مـن بضـاعة بشكل جذاب أمام الناظرين، يُعتبر وسيلة محتقرة واحتيالية لإغراء عمـلاء الـتجار الآخـرين، كذلك فإن أحد التقاليد الأخرى تمثل فى كونه من غير الأخلاقـى أو المهنى أن تتعامل فى أكثر من نوع من السلع، فإذا باع أحد التجار الشـاى كان ذلك سببا كافيا لكى لا يبيع ملاعق الشاى. أما فيما يتعلق بالإعلانات، فـإن الأمـر يكـون من الوقاحة والجرأة بمكان حتى أن الرأى العام- من شدة الغضب- يمكن أن يؤدى بالمعلن إلى الخروج من العمل؛ لأنه وفق القواعد السائدة آنذاك، السلوك الصحيح للتاجر هو أن يبدو متمنعًا لفراق سلعته.

وللمرء أن يتخيل ما يمكن أن يحدث حينما يدخل التاجر اليهودى فى قلب هذه

الغابة من التقاليد. لقد قام بخرق كل هذه التقاليد ببساطة شديدة، رغم أنه - فى تلك الأيام- كانت التقاليد تتمتع بقوة أشبه بقوة القوانين المنصوص عليها إلهيا، وبالتالى فــإن مبادرة اليهودى بخرقها نتج عنها اعتباره مرتكب كبيرة. فالشخص الذى من شـــأنه أن يخــرق هذه التقاليد التجارية سوف لا يردعه شىء، واليهودى كان تواقا للبيع، وإذا لم يستطع بيع سلعة ما لأحد زبائنه فلديه سلعة أخرى بصدد أن يعرضـها علــيه، ومحــلات الــيهودى تحــولت إلى بازارات (أسواق) وهو أمر سابق على المحــلات الكبــرى الحالية، ومن ثمَّ تم القضاء على التقليد الإنجليزى بوجود محل واحــد للســلعة الواحدة. وقد سعى اليهودى وراء التجارة وتعقبها، و كان أول من أصل لمبدأ "بيع سريع وربح قليل" وقد أصل أيضا لمبدأ التقسيط. أما الحالة التى لم يكــن ليتحملها فهى ركود العمل، وبوسعه أن يفعل أى شىء ليحرك المياه الراكدة، وحتـــي أنـــه فى الوقت الذى كان فيه الإعلان -حتى فى المطبوعات العامة- عن موقـــع المحـــل يعد أمرا مسيئا للعامة إلى حد يضع التاجر فى مخاطر مالية، كان الــيهودى أول مـــن استخدم الإعلان، فهو يوظف كل الذرائع والحيل التى لم يكن لينحنى لها أقل التجار احترامًا لنفسه.

وقـــد كان من السهل الربط بين هذه الطاقة وعدم الأمانة، غير أن اليهودى لم يكن يلعب هذه اللعبة، على الأقل مع التاجر الانجليزى الرصين، ولكن حقيقة الأمر أنه كان يلعب ليحوز كل شىء بين يديه، وقد حقق ذلك بالفعل. وقد أظهر اليهودى ذات المهارة منذ ذلك الوقت حتى أن قدرته على تحليل اتجاهات المال قد قاربت أن تصـــبح غريزية، وصارت مؤسساته فى أى دولة بمثابة القاعدة التى ينطلق ويعمل مـــن خلالهـــا بنو قومه. وإذا ما كان الأمر نتيجة طبيعية للمواهب الموروثة أو أنه بمـــثابة خطـــة متعمدة للوحدة والولاء العرقيين، فكل المجتمعات اليهودية التجارية كانـــت تتمتع بصلات مع بعضها البعض، وكلما ازدادت ثروات ونفوذ وهيبة هذه المجــتمعات الــتجارية، كونـــوا صداقات مع الحكومات، وأصبحت لديهم مصالح عظمـــى فـــى تلـــك الدول التى عملوا فيها. فهم ببساطة شديدة عملوا على تقوية مجــتمعهم المركزى أينما وجدوا، فى إسبانيا وفى هولندا وإنجلترا، وسواء تم ذلك بشكل مخطط له أم لا، فقد أصبح يجمعهم تحالف وتضامن ربما أكبر بكثير من تلك الــرابطة العضـــوية التى تربط بين فروع المشروع التجارى الواحد، وسبب ذلك مرده إلى اللحمة التي تفرضها الوحدة العرقية. ومثل هذا الرابط العرقى لا يمكن له

أن يـتواجد بـين الأغيار كما هو موجود بين اليهود، فالأغيار لا يفكرون بأنفسهم علـى أنهـم أغـيار، وهـم لم يشعروا أبدا أنهم يدينون بأى شىء لأغيار آخرين، وبالتالـى كانوا عملاء مناسبين للمخططات اليهودية فى الأوقات والأماكن التى لم يكـن من المناسب أن يظهر المسيطرون اليهود على الملأ، غير أنهم (الأغيار) لم يكونوا أبدا منافسين ناجحين لليهود فى السيطرة على العالم.

وكـان المجـتمع المركـزى لليهود يستمد قوته من هذه المجتمعات اليهودية المنفصـلة، حيث يعيش كبار المصرفيين ومحللو الشئون المالية، ومن هذا المجتمع المركزى ذاته خرجت المعلومات القيمة والمساعدات لأى مكان يحتاجها.

ولـم يكـن من الصعب بمكان معرفة كيف أنه فى ظل هذه الظروف، فإن أى دولـة لا تتعامل بكرم مع اليهود كانت تعاقب، بينما تلك التى تستسلم لكل رغباتهم تلقى التفضيل لديهم، وقد بينوا ــ بمصداقية ــ كيف جعلوا بعض الأمم تحس بقسوة غضبهم.

هـذا الـنظام - إذا وجـد من قبل - فهو موجود اليوم بقوة أكثر، ولكن فى الـوقت نفسـه هذا الوجود مهدد بشكل لم يسبق له مثيل، فمنذ خمسين عاما مضت كـان العمـل البنكى (المصرفى) العالمى - والذى كان فى معظمه تحت السيطرة الـيهودية حـيث كانـوا هم سماسرة المال العالميين- هو المهنة على القمة، وقد مورست هذه السيطرة على الحكومات والشئون المالية فى كل الأنحاء إلى أن ظهر هـذا الشـىء الجديد؛ الصناعة والتى توسعت لدرجة لم يكن ليتنبأ بها أكثر الأنبياء والمحللين حصافة، وكلما اكتسبت الصناعة قوة ونفوذا صارت جاذبًا قويًا للأموال، تسـحب ثـروات العالم إلى قافلتها، ليس فقط بسبب الرغبة فى امتلاك المال وإنما لتشـغيله أيضـا. وأصـبح المنهاج الرئيسى يقوم على مبدأ الإنتاج والأرباح على الإنـتاج بدلا من القروض والفوائد على القروض. ثم جاءت الحرب والتى- مما لا شـك فـيه - كـان لسماسرة العالم السابقين دور أساسى فى إشعال نيرانها، والآن القوتان الرئيسيتان الصناعة والمال ظلا يتصارعان ضد بعضهما البعض لمعرفة ما إذا كـان المال له الغلبة وسوف يتسيد الموقف مرة أخرى، أو أن الصناعة ستكسب المعـركة. هـذا هـو أحد الأمور التى تدفع بالمسألة اليهودية للوقوف أمام محكمة الرأى العام.

أن نقـول هـذا ونحاول إثبات صحته، ربما لن يكون أكثر من ترسيخ مقولة

علــو القدرة اليهودية. وبالتأكيد لا يمكن الدفاع عن مقولة إن اليهودى ناجح بشكل غيــر عـــادٍ، وبالتالى لابد من إيقافه وردعه، كما وأنه سيكون أيضا مجافيا للحقيقة القــول بأن تنسيق النشاط بين اليهود كان فى مجمله أمرًا مهددًا للعالَم. من المحتمل أنه حتى الآن كان مفيدًا. النجاح لا يجب أن يهاجم أو يدان، وإذا كانت هناك أسئلة أخلاقية تثار على الإطلاق، فلابد وأن تتعلق باستخدام هذا النجاح الذى تم الحصول علــيه. إن كـــل الموضوع يتركز هنا، بعد أن تأكدت تلك الحقيقة السابقة. والسؤال الآن: هـــل يمكـــن أن يستمر اليهودى كما استمر من قبل؟ أم أن واجبه تجاه العالم يتطلب توظيفًا آخر لهذا النجاح؟

هـــذا التســـاؤل بـــدوره يقود إلى نقاشات أخرى بالإضافة إلى تجميع الخيوط المتبقية للنقاش الحالى ، وهوما ستتناوله المقالات المستقبلية.

(ديربورن إندبندنت، عدد ١٢ يونيو ١٩٢٠م)

* * *